سر نبـــوغ المتنبي

بقلم على الجارم
المفتش بوزارة المعارف

طلب إلىّ أن أكتب فى إحدى نواحى أبى الطيب المتنبي ، وأعلم أن الناس فى القديم والحديث كتبوا عنه كثيرا ، وأن شعره نال من عناية الأدباء ومن بحثهم وجدلهم مالم ينله شعر قبله أو بعده ، وأن كتباً ضخاما ألفت فى كل ناحية من نواحى الرجل والشاعر ، حتى لقد يسبق إلى الوهم أن كل قول فيه يكون معاداً ، وأن كل نظرة فى شعره تقع على نظرات سبقتها إليه من قرون .

ولكن المتنبي الضخم يعزُّ على مَن رامَه ويطول ، فهو الجبل الأشم أينما قلبت فيه النظر رأيت عجبا ، وكيفما ملت برأسك إلى ناحية من نواحيه رأيت جديدا ، وهو البحر الخِضَمُّ تقف عند ساحله فيبهرك ماترى من عِظَم ، ويفتنك ماتشاهد من ألوان ، ثم أنت لاتزال ترسل النظرة إثر النظرة ، فلا تعود كل واحدة منها إلا بمعنى جديد وفنّ فى الحسن بديع ، ولأمر ماكان المتنبي يقول فى ثقة ويقين :

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِى عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْقَوْمُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ

فكيفما كتب الكاتبون فى المتنبي ، فلا تزال فيه مجالات للقول ، ولا يزال يطلّ عليك من مشارف أبياته معنى سَرِىّ ، فى ثوب من البيان قشيب

يزيدك وجهه حُسناً إذا ما زدته نظرا

والمتنبي - وبيننا وبينه ألف سنة أو تزيد - يطغى على الزمن قوة ، ويزهو على الأيام جدّة ، وما نزال نقرؤه سنة خمس وخمسين وثلثمائة بعد الألف ، فنهتز له كما اهتز سيف الدولة سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ؛ ولا يزل يهمس فى الأذن بالحكمة النادرة ، والقولة الحكيمة ، وقد مشت فوق رءوس الحقب ، وخاضت الينا مفاوز القرون ، وكانت لدة الدهر فى شبيبته ، ثم جاءت الينا من ذلك المكان البعيد الذى نسميه

الماضى،وقد زادها القدم جدة.وخلع عليها تعاقب الأعوام بردين من جلال ويقين:

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا
فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ
وَلَا تَحْسَبَنَّ الْمَجْدَ زِقًّا وَقَيْنَةً
فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السَّيْفُ وَالْفَتْكَةُ الْبِكْرُ
وَتَرْكُكَ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا، كَأَنَّمَا
تَدَاوَلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْمُلُهُ الْعَشْرُ

نقرأ المتنبي، فنحس أنه يخاطب كل نفس بأسرارها، ويكشف لكل سريرة مطوى أخبارها، وكثيراً ماحدثنا عن خلجات كنا نحس بها، ونسمع دق النفس دبيبها، ولكنا كنا عاجزين عن وصفها والتعبير عنها وهى منا على طرف الثمام، ومن أخبر بهمسات النفوس من أبى الطيب ؟ ومن أقدر منه على كشف جولات الخواطر ؟

بَرَتْنِي السُّرَى بَرْيَ الْمُدَى، فَرَدَدْتَنِي
أَخَفُّ عَلَى الْمَرْكُوبِ مِنْ نَفَسِي جِرْمِي
وَأَبْصَرَ مِنْ زَرْقَاءِ جَوٍّ؛ لِأَنَّنِي
مَتَى نَظَرَتْ عَيْنَايَ، سَاوَاهُمَا عِلْمِي

ألف سنة تمر، تطوى فيها أمم، وتشر أمم، ويتنقل فيها العقل الانسانى فى أطوار شتى يمحو بعضها بعضا، وتتبدل العادات غير العادات والأفكار، والمتنبى لا يزال يقرأ ويقرأ، ويجد فيه كل عصر طلبته من غذاء روحى تطمئن به النفس وترتاح اليه الضمائر.

مضى سيف الدولة ومضت آثار، وذهب كافور وانطوت أيامه، وأين على

الحاجب هذا الذى أجاز المتنبي على قصيدة من روائع شعره بدينار واحد ؟ ذهب هؤلاء جميعا ، وبقي ذكر المتنبي كالصخرة العبوس ، ينفرج أمامها زحام الأيام وتنكص دونها صروف السنين :

وَعِنْدِي لَكَ الشُّرَّدُ السَّائِرا تُ، لَا يَخْتَصِصْنَ مِنَ الْأَرْضِ دَارَا
قَوَافٍ ، إِذَا سِرْنَ عَنْ مِقْوَلِي وَثَبْنَ الْجِبَالَ ، وَخُضْنَ الْبِحَارَا
ولى فِيكَ مَالَمْ يَقُلْ قَائِلٌ وَمَالَمْ يَسِرْ قَمَرٌ حَيْثُ سَارَا

فالمتنبي عظيم . وأريد فى هذا المقال أن أكشف عن قليل من سرّ هذه العظمة ، وأن أبين بقدر مافى قلمى من مكنة ، شيئا من ضخامة هذا الشاعر وقوته التى عصفت بشعراء عصره ، وحجبتهم بغبارها وما كانوا خاملين ، ولا كانوا مقصرين ، وفيهم السرى الرفاء ، وكشاجم ، والنامى ، والدمشقى ، والسعدى ، وأمثالهم ، من كبار الشعراء ولكنه السهم العائر ، والجد العاثر ، أن تعيش فى عصر ينجم فيه نابغ يملأ الدنيا صخبا وجلبا ، وينشر درر بدائعه ذات اليمين وذات الشمال ، فيصغى اليه الدهر ، وتشخص له الأبصار ، وتبقى أنت مغمورا فى الزحام ، لاتعدم وكزة من مغامر ، أو ركلة من مزاحم ، فى ذلك الخضم الزاخر الرجاف ، والدنيا أم . اذا برزت مواهب أحد أبنائها ، انصرفت اليه بتدليلها ، وطوقته بحنانها نابذة ابناءها الآخرين الذين قصر بهم المدى وقعد بهم الجد العثور .

وكان المتنبي شاعرا بتلك العظمة وذلك النبوغ النادر ، فتحدّى شعراء عصره فى صلف لايطاق وجبرية لاتحتمل :

إذا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلِحْيَةِ أَحْمَقٍ أَرَاهُ غُبَارِى ، ثُمَّ قَالَ لَهُ : الْحَقِ
ولا تُبَالِى بِشِعْرٍ بَعْدَ شَاعِرِهِ قد أُفْسِدَ الْقَوْلُ حَتَّى أُحْمِدَ الصَّمَمُ
أفى كُلِّ يومٍ تَحْتَ ضِبْنِى شُوَيْعِرٌ ضَعِيفٌ يُقَاوِينى ، قَصِيرٌ يُطَاوِلُ ؟
بأىِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشِّعْرَ زِعْنِفَةٌ تَجُوزُ عِنْدَكَ ، لَا عُرْبٌ وَلَا عَجَمُ ؟

وأبرز ما يمتاز به شعر أبي الطيب : القوة ، والرَّوْعة ، والابتكار ، والنزوع إلى غاية لم يصل اليها الشعراء قبله ، والقدرة على إرسال المثل ، ودقة الوصف ، والتصرف فى المعنى القديم ؛ حتى يعود غضا جديداً . وقد تجد لكل شاعر فى كل قصيدة قالها بيتا أو أبياتا قليلة ، تُعَد من عيون الشعر وبدائعه ؛ أما المتنبى فلا تجد له فى كل قصيدة إلا بيتا أو أبياتا قليلة لم تصل إلى شأوه البعيد ، والباقى الكثير من القصيدة غُرَر ودُرر ، فهو إذا مدَح يقول فيبزُّ القائلين :

نَهَبْتَ من الأعمارِ مَالَوْ حَوَيْتَهُ لَهُنِّئْتَ الدُّنْيَا بأنَّكَ خَالِدُ

نعرف أن الناس يمدحون الملوك بالشجاعة والاقدام وكثرة الغزوات . وأن النصر معقود بلوائهم ؛ ولكن المتنبى يترك كل هذا ليتناوله صغار الفنانين ، ويصعد فى المدح بهذه المعانى إلى أفق أعلى ، تظهر فيه خصائصه ، وتتميز مواهبه ، فيجعل قتل الأعداء نهباً لأعمارهم ، واغتصابا لها ، ثم يدفعه خياله البعيد إلى فرض أن هذه الأعمار الكثيرة ، اتصل بعضها ببعض ، فكونت عمراً طويلا غير محدود ، ثم يَصْعَد إلى أوْج أسْمَى ، فيتخيل أن سيف الدولة ، حاز هذه الأعمار غير المتناهية ، التى انتزعها من أعدائه ، ولا يكتفى بالحكم بأن هذا يصل به إلى الخُلُود ، بل يَدَّعى أن الدنيا بمن فيها وما فيها تُهَنِّأ بهذا الخلود . ثم ما أجَلَّ تصوير النصر المُحَقق فى قوله بعد هذا البيت :

فأنتَ حُسامُ المُلْكِ ، واللهُ ضَارِبٌ وأنتَ لِواءُ الدِّينِ ، واللهُ عَاقِدُ

بهذا ومثله ، سبق المتنبى الشعراء فى المديح ، وغَبَّرَ فى وجوههم .

ثم انظر اليه حين يقول فى سيف الدولة :

أتَحْسَبُ بيضُ الهِنْدِ أصْلَكَ أصْلَهَا وأنَّكَ مِنْهَا ؟ سَاءَ ما تَتَوَهَّمُ !

إذا نَحْنُ سَمَّيْنَاكَ ، خِلْنَا سُيُوفَنَا من التِّيهِ فى أغمادِها تَتَبَسَّمُ

اتَّخَذَ المتنبى من اسم سيف الدولة سبلا شتى للافتنان فى مديحه ، والمماثلة بينه وبين السيوف ، فأجاد فى كثير من ذلك وحَلَّق ، ومثل هذه الفُرص تعرض

لكثير من الشعراء، ومجال القول فيها هيّن إذا لم يتجاوز الشاعر اللّعب باللفظ على نوع رخيص من التخيل. أما المتنبي فليس من هذا الصنف، ولا من ذلك الطابع، استمع له وهو يتهكم بسيوف الهند، حين تظن كذبا وغروراً وتلمّساً لشرف الاتصال بسيف الدولة، أنها هى وسيف الدولة من أصل واحد، فكلاهما قاطع بتّار، وكأنى أسمع تهافُه فى سُخرية واستهزاء، حين يقول: (ساء ما تتوهّما) وهنا موطن قوته وصرامته الشعرية، فأكثر ما تظهر فى هذه الجمل القصيرة المفصولة، التى لها وقع السهام، ثم يَصعد إلى أفق لا تسافر اليه الظنون فيقول: إن هذه السيوف تكتفى من الشرف بأن اسمك وافق اسمها. فإذا سَمّيناك خِلناها تَبتَسِمُ فى أغمادها تِيها وعُجباً.

ثم خذ مثلا آخر فى مدح كافور.

إذَا طَلَبُوا جَدْواكَ أُعْطُوا وحُكِّمُوا
وإن طَلَبُوا الفَضْلَ الَّذِى فيكَ ـ خُيِّبُوا
ولو جَازَ أَنْ يَحْوُوا عُلاكَ ـ وَهَبْتَهَا ولكنْ مِنَ الأشْيَاءِ مَا لَيْسَ يُوهَبُ

فهل من يستطيع أن يصوّر الصَّفح والتّجاوز وعظم النفس هذا التصوير؟ إن حسّادك وأعداءك إذا سألوك العطاء، أعطيت وأغدقت، وسألتهم أن يتحكموا فيما يطلبون، ولكنهم لو طلبوا أن ينالوا ما فيك من كريم الشِيم، وعالى الهِمَم ردوا خائبين، لا ضنًّا منك ولا بخلا، فلو كان فى استطاعتك أن تمنحهم إياها لفعلت (ولكن من الأشياء ما ليس يوهب) وفى هذه الجملة القصيرة أيضا تظهر قوة الشاعر وشدة أسره.

ننتقل بك إلى الوصف، ولنبدأ بهذه الأبيات:

وذِى لَجَبٍ لاذو الجَناحِ أمامَهُ بِنَاجٍ، ولا الوَحْشُ المُثَارُ بِسَالِمِ
تَمُرُّ عليه الشمسُ وهْىَ ضعيفةٌ تُطَالِعُهُ من بَيْنِ رِيشِ القَشَاعِمِ
إذا ضَوْءُها لاقَى مِنَ الطِيرِ فُرْجَةً تَدَوَّرَ فَوْقَ البَيْضِ مِثْلَ الدَّرَاهِمِ

ويَحْفَى عَلَيْكَ الرَّعْدُ والبرقُ فَوْقَه من اللَّمْعِ فى حافَاتِهِ والْهَمَاهِمِ

برَع المتنبي فى وصف الجيوش والوقائع ، مافى ذلك شك ، فقد كان يحمل بين جنبيه نفسا نزاعة إلى القتال ، تدفعها الآمال الكبار ، وكانت وقائع سيف الدولة مع الروم حافزة لهذه النفس ، مؤججة لتلك الجذوة ، ولو حاولنا أن نشرح له خير ماقاله فى هذه الناحية لطال المقال ، ولكنا نكتفى بالأبيات التى قدمنا ؛ ففيها قوة ، وفيها جمال شعرىّ ، وفيها وصف دقيق ، ما أورعَ أسلوبه فى البيت الأول ! وما أجل ما فيه من تقسيم وتنسيق ! فالجيش كثير العدد كثير اللجَب ، تتهادَى قذائفه ، أثار الوحوش من مكامنها ، والطيور من أوكارها ، فلاذو الجناح يناج من سهامه المترامية ، ولا الوحوش بسالمة من عديده الخِضَمّ ، ثار فيه الغبار فسد الأفق ، وعلا فى السماء فكَسَفَ الشمس ، فهى تمر عليه ضعيفة ضئيلة الضوء ، فإذا أطلَّتْ فإنها تُطِلّ من بين ريش النُّسور التى حلَّقَتْ فوقه ؛ لوثوقها بنصره ، وشدة طمعها فى جَثث أعدائه .

وقد شرح هذا المعنى فى قصيدة أخرى ، وجَلاَّه فقال :

يُطَمِّعُ الطيرَ فيهم طُولُ أكلِهِمُ حتى تَكادَ على أحيائِهِمْ تَقَعُ

وهذه الشمس إذا وُفِّقَتْ إلى فُرْجة بين أجنحة النسور ، سقطت أضواؤها على الخوذات ، مُدَوَّرَةً كالدراهم ، وهذا تشبيه يدل على دقة الملاحظة ، وأن المشاهدة الدقيقة لمظاهر الأشياء ، كان لها أثر بعيد فى تكوين المتنبى ، وقد أعاد هذا المعنى فى قصيدة شعب بوّان ، فقال :

وَأَلْقَى الشَّرْقُ مِنْهَا فى ثِيَابِى دَنَانِيراً تَفِرُّ مِنَ الْبَنَانِ

ثم إنّ هذا الجيش كثرت فيه هَمْهَمَةُ الأبطال ، وهى الصوت يتردّد فى الصدر ، فإذا رَعَدَ الرَّعدُ لم يُسْمَع ، وازداد فيه بريق السيوف ، فإذا لَمَعَ البرقُ لم يُبْصَر ، وإذا كانت الهمهمة ، وهى الصوت الخافت تُغَطَّى على الرعد ، فأجدِر

بأن يكون الجيش بالغا الغاية فى العظم.(١)

والمتنبى منحّى فى الرثاء عجيب، فهو لا يلطم الخدود، ولا يشقّ الجيوب، كما يفعل صغار الشعراء، ولكنه يطلق العنان لفلسفته فى الموت والحياة، فيقول فى رثاء أخت سيف الدولة الصغرى:

خِطْبَةٌ لِلحِمَامِ لَيْسَ لَهَا رَدٌّ م وَلَكِنَّهَا الْمُسَمَّاةُ ثُكْلاَ
وَإِذَا لَمْ تَجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْئًا ذَاتُ خِدْرٍ أَرَادَتِ الْمَوْتَ بَعْلاَ
وَلَذِيذُ الْحَيَاةِ أَنفَسُ فِى النَّفْ سِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يُمَلَّ وَأَحْلَى
وَإِذَا الشَّيْخُ قَالَ: أُفٍّ! فَمَا مَلَّ حياةً؛ وَإِنَّمَا الضَّعْفَ مَلاَّ
آلَةُ الْعَيْشِ صِحَّةٌ وشَبَابٌ فَإِذَا وَلَّيَا عَنِ الْمَرْءِ وَلَّى

وقد سلك فى رثاء الأخت الكبرى طريقا جديدا، هو برثاء القواد والملوك أشبه منه برثاء النساء:

طَوَى الْجَزِيرَةَ حَتَّى جَاءَنِى خَبَرٌ فَزِعْتُ فِيهِ بِآمَالِى إِلَى الْكَذِبِ
حَتَّى إِذَا لَمْ يَدَعْ لِى صِدْقُهُ أَمَلاً شَرِقْتُ بِالدَّمْعِ، حَتَّى كَادَ يَشْرَقُ بِى
كَأَنَّ «فَعْلَةَ» لَمْ تَمْلأْ مَوَاكِبُهَا دِيَارَ بَكْرٍ وَلَمْ تَمْنَحْ وَلَمْ تَهَبِ
وَلَمْ تَرُدَّ حَيَاةً بَعْدَ تَوْلِيَةٍ وَلَمْ تُغِثْ دَاعِيًا بِالْوَيْلِ وَالحَرَبِ

والبيتُ الأول تصوير غريب لحال من فوجىء بخبر محزن، فهو يتشبّثُ بالأوهام، ويلجأ إلى أوهى الأسباب.

(١) تجد وصفا بديعا للجيوش فى القصيدة الدينارية وفى القصائد: «على قدر أهل العزم تأتى العزائم»، و«الرأى قبل شجاعة الشجعان»، و«طوال قنا تطاعنها قصار». ومن أوصافه البديعة وصفه لبحيرة طبرية فى قصيدته: «أحق عاف بدمعك الهمم»، ووصف الخيل فى: «أبعد نأى المليحة البخل»، ووصف الليل فى: «ضروب الناس عشاق ضروبا». أما وصفه الأسد، والحمى، وشعب بوان، فمن مشهوراته.

ومن خير مراثيه وأقواها مرثيته[1] فى جدته ، ولكنه شغل أكثرها ، كعادته ، بالحديث عن نفسه :

فوا أسفا ألا أكب مقبلا ... لرأسك والصدر الذى ملئا حزما!
وألا ألاقى روحك الطيب الذى ... كأن ذكى المسك كان له جسما
ولو لم تكونى بنت أكرم والد ... لكان أباك الضخم كونك لى أما
لئن لذ يوم الشامتين بيومها ... لقد ولدت منى لآنفهم رغما

هذه نوازع نبيلة امتزجت بالقوة والروعة والجمال .(٢)

وللمتنبى فى الهجاء القول المُمِضّ والكلام المُرّ ، ولم يكن كثير الهجاء ، ولكن بيتا واحدا من هجائه كان يقوم مقام القصيدة الطويلة فى الإيلام وشدة الإيجاع وإصابة المَحَزّ ، فهو يقول لابن كَرَوَّس جليس ابن عمار : —

فلو كنت امرأ تُهجى هجوناً ... ولكن ضاق فترٌ عن مسير

هذا منتهى ما يصل اليه الاحتقار ، فهو ليس برجل يُؤبه له حتى يُهجى ؛ لأن قدره أضيق من أن يتسع لجولات الهجاء ، فهو كالفتر أقل من أن يتسع لمسير .

ويقول لأبى الفَرَج السامرى ، أحد كتاب سيف الدولة :

صغرت عن المديح فقلت أهجى ... كأنك ما صغرت عن الهجاء
وما فكرت قبلك فى محال ... ولا جربت سيفى فى هباء

أليس ذلك منتهى الصلف القاتل ، والوخز الفاتك ؟

أما هجاؤه لكافور فقد قذفه فيه بالصيلم :

إنى نزلت بكذابين ، ضيفهم ... عن القرى وعن الترحال محدود
جود الرجال من الأيدى ، وجودهم ... من اللسان ، فلا كانوا ولا الجود!

(١) اقرأ مرثيته فى أم سيف الدولة : « نعد المشرفية والعوالى »

مايقبِضُ الْمَوْتُ نَفْساً مِنْ نُفُوسِهِمُ إلا وفى يَدِهِ من نَتْنِهَا عُود

ولو أن إنسانا حاول أن يَهْجُوَ ألأم مخلوق أظلَّتْهُ السماء ، ما استطاع أن يقول فيه أنكى من هذا وأقذع .

وكانت للمتنبي فلسفة ، وكانت هذه الفلسفة من أكبر أسباب إجادته ، ثم من أكبر أسباب شهرته ، ولم تطغ عليه الفلسفة كما طغت على المعرى حتى أفسدت شعره أو كادت .

ويظهر لى أن فلسفة المعرى كانت عن اطلاع ، وفلسفة أبى الطيب كانت عن ابتداع ، وقد كانت هذه الفلسفة تلازمه فى جميع فنون شعره ، فهو إذا فخر بنفسه يقول :

وحِيدٌ من الخُلاَّنِ فى كُلِّ بَلْدَةٍ إذَا عَظُمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ المسَاعِدُ

وإذا تَغَزَّلَ يقول :

تَقُولِينَ : مافى النَّاسِ مِثْلُكَ عَاشِقٌ جِدِى مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتُهُ تَجِدِى مِثْلِى

وهذا قياس استثنائى يعرفه علماء المنطق ويفهمونه .

أو يقول :

لِهَوَى النُّفُوسِ سَرِيرَةٌ لا تُعْلَمُ عَرَضاً نَظَرْتُ ، وَخِلْتُ أَنِّىَ أَسْلَمُ

وإذا ذم يقول :

وَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُهُ قَدْرَهُ رأَى غَيْرُهُ مِنْهُ مَالاَ يَرَى

وإذا مدح يقول :

لَوْلاَ المَشَقَّةُ سادَ الناسُ كُلُّهُمُ الجودُ يُفْقِرُ ، والإِقْدَامُ قَتَّالُ

وإذا وصف خيمة سيف الدولة التى سقطت من ريح شديدة يقول :

فَلاَ تُنْكِرَنَّ لَهَا صَرْعَةً فَمَنْ فَرِحَ النَّفْسِ مايَقْتُلُ !

وإذا رثى يقول :

نَصِيبُكَ فى حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُك فى مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ

أما إذا شكا الزمان ، ونقد الاجتماع ، أو تعرّضَ لأخلاق الناس ، فهناك الانهمار فى الحكمة ، وضرب الأمثال ، وفلسفة الحياة .

ولا نريد هنا أن نكثر من التمثيل ، فحكم أبى الطيب كثيرة جداً ، وقد تناولها الأدباء بالجمع والتمحيص والنقد ، وأكثر قصائده حكما : « لا افتخار إلا لمن لا يضام » و « فؤاد ما تُسَلِّيه المدامُ » و « لِهَوَى النفوسِ سريرة لا تُعْلَم » و « صَحِبَ الناسُ قَبْلَنَا ذا الزمانا »

وغَزَل المتنبى غَزَل صناعىّ تَطَلَّبَهُ الفنُّ واقتضَتْه الصناعة ، وكثير منه مع هذا بالغٌ حدَّ الجودة ، أليس من المُرْقِص قوله :

أتُرَاها لكَثْرَةِ العُشَّاقِ تَحْسَبُ الدَّمْعَ خِلْقَةً فى المَآقى

وقوله :

لَبِسْنَ الوَشْىَ لا مُتَجَمِّلاتٍ ولكنْ كى يَصُنَّ به الجمالا

وَصَفَّرْنَ الغَدائر لا لِحُسْنٍ ولكنْ خِفْنَ فى الشَّعَرِ الضَّلالا

وقوله :

وخَصْرٌ تَثْبُتُ الأبصار فيه كَأَنَّ عليه من حَدَقٍ نِطاقا

وقوله :

سَقَاكِ وَحَيَّانا بك اللهُ ، إنمـــا على العِيس نَوْرٌ والخُدُور كمائِمُه

وماحاجَةُ الأظْعانِ حَوْلَكِ فى الدُّجَى إلى قَمَرٍ ، ما واجِدٌ لك عادِمُه

وقوله :

ولو زُلْتُمُ ثُمَّ لم أَبْكِكُم بَكَيْتُ على حُبِّىَ الزائلِ

أما غزَلُه فى الأعرابيات فى قصيدته : « مَن الجآذِرُ فى زِىّ الأعاريب؟» فقد بلغ فيه غاية الإحسان .

وكان المتنبي فخوراً تيّاهاً ، وقد ملأ أكثر قصائده بالتحدُّث عن نفسه ، حتى عند مديحه للأمراء ، وحسبك أن تعلم أنه يقول عن نفسه فى قصيدة أنشدها بين يدى سيف الدولة :

سَيَعْلَمُ الجمعُ مِمَّنْ ضَمَّ مَجْلِسُنَا ... بأَنَّنِى خَيْرُ من تَسْعَى به قَدَمُ

الخيلُ والليلُ والبيداء تعرفنى ... والسيف والرُّمْح والقِرطاسُ والقلمُ

ومن أسْمَى ما قاله فى الحماسة والفخر قوله : ..

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى ... بأصعبَ من أن أجمعَ الجِدَّ والفهْما

ولكننى مُسْتَنْصِرٌ بذُبابه ... ومُرْتَكِب فى كلِّ حال به الغَشْما

وجاعِلُه عند اللقاء تحيَّتى ... وإلا فلستُ السَّيِّد البَطَل القَرْما

إذا فَلَّ عَزْمِى عن مَدًى خوفُ بُعده ... فأصعبُ شىءٍ، ممكنٌ لم يجدْ عَزْما

وإنى لمن قَوْم كأنَّ نفوسَهم ... بها أنَفٌ أن تسكُنَ اللحمَ والعَظما

كذا أنا يادنيا ، إذا شئتِ فاذهبى ... ويا نفسُ زِيدى فى كرائهها قُدْما

فلا عَبَرَتْ بى ساعةٌ لا تُعِزُّنِى ... وَلا صَحِبَتْنِى مُهْجَةٌ تَقْبَلُ الظُّلْما

وللمتنبي بدائع بلغت الغاية فى حُسْن تصوير المعانى وتجويد الصناعة ، وصوغ الأساليب يحسن أن نختم بها هذا المقال كقوله :

كريمٌ لفَظْتُ الناسَ لما بَلَغْتُه ... كأنَّهُمُ ما جَفَّ من زاد قادِمِ

وقوله :

خيرأعضائنا الرءوسُ ، ولكنْ ... فَضلَتْها بقَصْدِكَ الأقدامُ

ومن غريب أخيلته فى وصف هول الحرب قوله :

واستعار الحديد لونا ، وألقى لونه فى ذوائب الأطفال

ومن إحساناته قوله يخاطب الحمى :

أَبِنْتَ الدهرِ عندى كلُّ بنتٍ فكيفَ وصلتِ أنتِ من الزِّحام

جَرَحْتِ مُجَرَّحًا لم يَبْقَ فيهِ مَكانٌ للسُيوف وللسِهامِ

وقوله فى وصف السيف :

يَبِسَ النَجِيعُ عليه وهو مُجَرَّدٌ من غِمْدِهِ فكأَنّما هو مُغْمَدُ

رَيّانُ لو قَذَفَ الذى أَسْقَيْتَهُ لَجَرَى من المُهَجاتِ بحرٌ مُزْبِدُ

وقوله :

كأَنّ الهامَ فى الهَيْجَا عُيونٌ وقد طُبِعَتْ سيوفُك من رُقاد

وقد صُغْتَ الأسِنَّةَ من هُمومٍ فما يَخْطِرْنَ إلا فى فؤاد

وقوله وقد وفد على علىّ الحاجب راجلا : —

وحُبيتُ من خُوصِ الرِكابِ بأسْوَدٍ من دَارِشٍ ، فغَدَوْتُ أَمْشى رَاكِبًا

وقوله وهو من تخلُّصاته البديعة :

أَقْبَلْتُهَا غُرَرَ الجِيَادِ كأَنّما أَيْدِى بنى عِمْرَانَ فى جَبَهاتِها

وقوله فى وصف الخيل :

إنْ خُلِّيَتْ رُبِطَتْ بآدابِ الوَغَى فَدُعاؤها يُغْنِى عن الأرْسانِ

فى جَحْفَلٍ سَتَرَ العُيُونَ غُبارُه فكأَنّما يُبصِرْنَ بالآذَانِ

وأوابد أنى الطيب التى بَزَّ بها الشعراء ووصل بها إلى قِمّة الفنّ الشعرى ، أكثر من أن تجمع فى مثل هذا المقال ، وتكفينا هنا هذه الكلمات الموجزة ، فى إذاعة شىء من سِرّ عبقريته .

على الجارم